نمو الشخصية القاعدية الثقافية وتفاعلها السلبي مع الاستيطان

(حالة الجزائر)

د. عبد الله ساقور(*)

إن الاستعمار والاستيطان مفهومان حركيان "Dynamic"؛ أي أنهما يتطوران ويختلفان عبر الزمان والمكان. وهما ظاهرتان أساسيتان خارجيتان تعبران عما تكنه النفوس الاستعمارية من زاوية ضيقة لدى الإنسان الغربي/ الفرنسي تحديدا، وحذقه، بل تطويره لقدراته الفكرية والمادية بفهم المستعمَرين لكلياتهم وجزئياتهم، قصد السيطرة عليهم وقيادتهم لمآربه، وقضاء حوائجه الحالية والمنظورة على المدى البعيد.

نتناول هنا مصطلحات الشخصية القاعدية الثقافية والاستعمار والاستيطان.

الحدود خطوط وهمية متحركة:

لعبت الحدود السياسية دورا جوهريا في تشكيل بعض المقولات السوسيولوچية واستخدامها، وظهر اتجاهان: **الأول**؛ أسبقية المقولات التي تقارب المشكلات الداخلية "Internal" لشعب من الشعوب أو لإقليم ما، في حين يتولى **الآخر** استخدام المقولات التي تُعنى بالمشكلات الخارجية، ومنها: الاستعمار والاستيطان، بدون تحديد لنقاط التقاطع بين هذه المشكلات وتفصيلاتها الداخلية والخارجية، وجاءت بذلك هذه المقولات بإسقاطاتها

(*) أستاذ علم الاجتماع، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي، عنابة، الجزائر.

الخلافيـة "Controversial"، فمصـطلحات الاسـتعمار والاسـتيطان يمكـن وضعها فى سياق المقولات المطاطة Striking Words عند تناول الظـاهرة الدولية (الاستعمار)، وما بذلـه المحللون من محاولات قصد تفسير طبيعة العلاقات الداخلية والضد - اجتماعية بين مختلف الشعوب والأمم. فما المقصود بهذه المقولات؟

١ - **الاسـتعمـار**: "Colonisation" مصطـلح مـشـتق من كلمة "Colony" التى تعنى إحلال المهاجرين من البلد الأم "Métropole" لعمارة أرض بكر أخرى. فالجرد التاريخى يتحدث عن المستوطنات اليونانية الأولى؛ إذ استعمر مهاجرون يونانيون أرضا واقعة تحت الهيمنة الرومانية فى شمال إفريقيا (See: Casanova, p.G., 1964. p.27). وفى خضم أزمـة النظـام الإقطاعى ظهر اقتصاد التأجير "الكولونا"، وهو نظام لتأجير الأرض من قبل الأسياد وملاك الأراضى لمستأجرين، يقدم المستأجرون مقابل ذلك كمية معينة من النقود أو الناتج، إضافة إلى القيام بخدمات متعددة للسيد (مالك الأرض) من قبيل الخدمة فى قصوره (انظر: عبد الله ساقور: ٢٠٠٤، ص٤٨-٥٤).

وبقى المصطلح "Colony" قيد الاستعمال حتى القرن التاسع عشر للدلالة على حال الهيمنة التى يمارسها المهاجرون البيض من البلد الأم على السكان الأصليين؛ إذ تعنى لدى العام والخاص ملكية أراض يهيمن عليها مهاجرون أوربيون، ويسخر فيها سكانها الأصليون حسب تعبير هرمان ميريفـال (Merivale. H., 1844)، وتعـنى "Colonisation" حرفيـا الاستعمار الاستيطانى أو السكنى.

غير أن مولود قاسم نايت بلقاسم يرفض استخدام مصطلح الاستعمار، بل يهاجمه بتهكم، وبالإيجاز المقتصد، فهو فى نظره لا يعدو كونه "استدمارا"[١]. ذلك الوصف والتفسير والتسويغ لما ابتدعته السلطات الاستعمارية من مداخل وأفعال وسلوكيات وحشية لاجتثاث المجتمع الجزائرى

الواحد والموحد، وفصم عراه من الداخل والخارج؛ إذ دمرته (أى أهلكته). ومنه يبدو السلوك الاستعمارى مقولة سياسية وسوسيولوچية فى الوقت ذاته؛ إذ تشير صراحة إلى "تلك الظاهرة السياسية التى تستهدف السيطرة على الأسواق وإيجاد المنافذ لتجارة الدولة المستعمرة"؛ أى ذلك الموقف السياسى - الاجتماعى الذى تستعمل فيه دولة ما حق السيادة على إقليم خارج حدود أراضيها، بل نراها تمدد خطوطا وهمية لتتعداها إلى ما سواها من البلدان. وتعمد هذه الدولة إلى نزع ملكية المواطنين الأصليين، ونهب خيراتهم ومواردهم، ويتم التفكير فى ترحيلهم قسرا خارج وطنهم الأصلى، والإبحار بهم صوب جزر الأعاصير والكنارى فى المحيط الأطلسى، لاجتثاث "To wretch" العرب الجزائريين وفقا لما وضعته السلطات الاستعمارية على أنه خيار مطروح عليها (See: Clegg, I., 1971, p.24). ومن أسوء وأخطر المراحل التاريخية للوجود الجزائرى فى وطنه ما اتسمت به المرحلة الاستعمارية الفرنسية من سفك للدماء، وتفش للنزاعات على نطاق واسع ووحشية فى حق الإنسان والطبيعة.

٢- **الغزو والإحلال:** الغزو الفرنسى للجزائر هو قيام مجموعة غريبة من السكان هى الأقدام السوداء[٢] "Pieds - noirs" بغزو مدن أو أحياء أو قرى أو تلال تسكنها جماعة أصلية جزائرية يفوق كثيرا مستواها الثقافى والاجتماعى والاقتصادى المجموعة الغازية، كان الجزائريون يتمتعون بمستوى مقبول من العيش فى مدنهم وقراهم وبواديهم وأحيائهم قبل الغزو، أفضل بكثير من الحثالة الاجتماعية الأوربية[٣] "Social Rubbish" ذات الرسالة المقدسة لنشر الحضارة المسيحية فى المغرب العربى المحمدي[٤]، أما **الإحلال** فيحدث عندما يهاجر سكان المنطقة الأصلية الذين سكنوها قبل الغزو، ويحل محلهم السكان الغربيون بشكل عنيف.

ويجب التفريق هنا بين المهاجرة "Emigration" والاستيطان،

فالمهاجرة إذاً تكمن فى أن باعثها هو رغبة الشخص فى الخلاص من وضعه فى وطنه الأم إلى ما يظنه أفضل حالا فى المهجر، من قبيل تحسين حاله من الناحية الاقتصادية. ونلاحظ هنا وجود تلازم وتزامن بين العمليتين بمناسبة الاستعمار والإعداد للاستيطان عند اشتراك الحركة المكانية (نزع الملكية) مع الحركة الاجتماعية (تمليك المهاجرين)؛ أى أن تعمل الحركة الاجتماعية على تغيير الوضع والمركز والدور والمكانة الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين وأولئك النازحين باتجاهين متضادين فى السرعة والقوة.

٣- **الاستيطان والمستوطنات:** كتب "صلسيو فورتادو" (Furtado, 1963) حول النمو فى البرازيل، وميز بين نوعين من المستوطنات "Colonies". وصف النموذج **الأول** منها بأنها مستوطنات للمهاجرين "Immigrant Colonies". وهى مستوطنات زراعية بالدرجة الأولى. ومن خصائصها قيامها وتشكلها من قاعدة اجتماعية متجانسة تقدمت بخطى محسوبة فى اتجاه التمتع بحقوق المساواة فى الدولة الأم. ويمكن تحقيق ذلك بما يتلقاه هؤلاء المهاجرون من دعم سخى فى المجالات المالية، وتطوير بناهم القاعدية بصورة مجانية، فضلا عن العمل الاجتماعى - السياسى فى اتجاه الاستقلال السياسى الشكلى أو المحتمل. ويشير النموذج **الثانى** مستوطنات الاستغلال "Exploitation Colonies" إلى التبعية "Dependance" الكاملة للدولة الأم التى تم تشكيلها من فسيفساء اجتماعية لم يشارك أعضاؤها فى اختيار موقعها، ولم ينخرطوا فيها برغبتهم.

وعلى العموم، فإن المجتمع المستعمَر غالبا ما يتسم بوجود مجموعات بشرية تتفاوت فى وعيها الذاتى؛ إذ يغلب عليها طابع الفرقة والقلاقل فيما بينها لأسباب مختلفة (لون البشرة مثلا، أو التحصن بعقيدة معينة، أو مرجعية سياسية واحدة)؛ أى ميل هذه المجتمعات الثنائية "Dualistic Society" إلى تكوين

فئات اجتماعية متعددة حسب والتر (See: Walter 1944, p.92).

والملاحظ لدى الشعوب المستعمرة معاناتها لظاهرتى التسلط وتفشى عقلية التميز العنصرى المقترنتين أصلا بالسيكولوچية السياسية للاستعمار.

توجد دراسات[٥] عدة عن الشعوب المستعمَرة، ولكن هناك قصورا فى تلك الدراسات المتعلقة بالسلوك الاستعمارى، ولا تتوافر دراسات ميدانية عن الشخصية الاستعمارية "Colonial Personality" بما يكفى لتحقيق الغرض العلمى. والقول ذاته ينطبق أيضا عندما يتعلق الأمر بالشخصية المستعمَرة "Colonized Personalitiy"، ولكن من يُعتدى عليه لا يستسلم إلا إذا استنفد قواه، أو دمر ماديا ومعنويا. وقد يحدث هذا على المستوى الميكرو - سوسيولوچى، ولكن على المستوى الماكرو - سوسيولوچى يكون هناك موقف آخر عندما يتعلق الأمر بمصير مجموعة إثنية (ماكرو - سوسيولوچيا). وهنا تبرز بقوة الشخصية القاعدية الثقافية فى تصديها أو تقبلها للعدوان. فما المقصود بها؟

الشخصية القاعدية الثقافية: "Basic Personality Culture" يتردد هذا المصطلح فى كتب علمى النفس والاجتماع تارة، والأنثربولوچيا السياسية تارة أخرى؛ إذ يستعان بها فى تصميم السياسات التربوية وتأطير مؤسسات التنشئة الاجتماعية وتكوين الشخصية والثقافة والعلوم والسياسة والتاريخ...إلخ. وهى تشير إجمالا إلى "جملة الصفات والخصال الحضارية التى تميز المجتمع، والتى تنعكس فى سلوك الفرد العادى لتجعله متميزا عن غيره نتيجة لانتمائه إلى ثقافة معينة" (انظر: دنكن ميشل: ١٩٨١، وحامد عبدالله الربيع: ١٩٧٢، ص١٥). ويكون سلوكا متسما بالثبات النسبى، لا يمنع إمكان حدوث تغيير سريع فيه نسبيا، وفى فترة قد لا تزيد عن عشرين سنة فى فترات الاحتلال العسكرى أو الغزو (انظر: دنكن ميشل، ١٩٨١). وهذا يعنى:

أ- أن نمطا اجتماعيا معينا موجود بالفعل. فلماذا هو موجود؟

ب- وجود صورة دينامية متماسكة جامعة للشتات الظاهرى لأبعادها السلوكية خاصة، السليمة والمعتلة، مفصحة عن ولاءاتها وهويتها.

ج- وجود شبكة متناسقة ذات نمط ثقافي/ حضارى مميز للتعبير عنه رمزيا، بالقول والفعل، من الأوضاع والمواقف والتوجيهات والتوجهات، وجوهرها سلوك عقلانى أو غير عقلانى وليس تبريريا.

د- إن السيكولوچيا - الاجتماعية متغيرة ومتطورة زمنيا، لارتباطها الوثيق بعالمى الضرورة والتسلط.

هـ- إن التناقض بين المتوقع والمتحصل عليه لدى الأفراد يؤدى إلى إزاحة رؤيتهم الحالية لما يجب أن يكون عليه العالم أو إزالتها، ودفعهم إلى أنماط حياة أخرى، وما يترتب عليها من مظاهر متنوعة للانقياد والرضوخ والولاء والتسلط والقهر والتزلم والتذمر والثورة.

و- بروز علاقات ابتنائية تخلق أنماطا من الوجود الحر أو المقيد والمتطور بدرجات مختلفة السرعة تاريخيا (حقبات طويلة وأخرى قصيرة).

ز- يلاحظ طغيان سمات بارزة لهذا الوجود فى كل مرحلة يمر بها المجتمع موضوع الدراسة (تعاون مع العدو Collaboration) أو التدين الشعبى مثلا عند وقوع الأزمات الحادة أو المقاومة.

ح- تكوين صورة واضحة نموذجية للسمات الثقافية والحضارية تحديدا فى بنية موحدة ومنتظمة تجعلها فى مرآة الآخر: المستوطن/ المستعمر مميزة منه، وتفضى إلى الشعور أيضا بالتميز على المستويين الميكرو والماكرو - سوسيولوچى (أنا جزائرى - عربى - مسلم - مجتمع مسلم - إنسانى).

مواقف المجتمع الدولى من الاستعمار:

بما أن قضية الاستعمار قضية دولية (خارجية) بالدرجة الأولى، فلا بأس من استعراض مقتضب لما يجرى فى ردهات الأمم المتحدة من طروحات وأطروحات ذات صلة؛ إذ تتباين وتتعدد القراءات فى تأويل المواد القانونية وفقا لمواقف الدول، عندما يتعلق الأمر بتصفية استعمار ما، علما أن "حال الهيمنة المسلطة على هذه الشعوب المستعمّرة هى من صنع دولة عضو فى الهيئة الأممية، فغدا مصطلح الاستعمار دليل إدانة لأكثر الأمم احتراما وقوة تارة، وبدا تناوله محرما (تابو) فى بعض المجالس تارة أخرى".

وتشير المادة (٢٣) من ميثاق الأمم المتحدة إلى وصف تلك الأقطار التى لم يتمكن سكانها بعد من حكم أنفسهم بأنفسهم، ونقتطف بعضا من مواقف ممثلى حكومات العالم العضو فى الأمم المتحدة؛ إذ إن:

أ- المندوب الأمريكى يبرز بعض الملاحظات العلمية، ويرى أن هذه المادة تنطبق على حال الأقطار التى تديرها إحدى الدول العضو فى هيئة الأمم المتحدة بمعرفتها بدون أن يكون لسكانها الأصليين وضع حكم أنفسهم بأنفسهم "Self - Government" مثلما هى الحال السائدة فى البلد الأم.

ب- وحدد المندوب الفرنسى آنذاك سنة (١٩٤٦) ثلاث حقائق لتفسير مفهوم الوطن (القابع) تحت الاستعمار، وهى: التبعية لدولة عضو فى الأمم المتحدة من جهة، وتحمل هذه الدولة مسئولية إدارة هذا الوطن بمعرفتها من جهة أخرى، وأخيرا وجود سكان لم يبلغوا بعد مرحلة الحكم الذاتى.

ج- فى حين تحدث المندوب السوفيتى آنذاك عن هذه الأوطان المستعمَرة، ووصفها بأنها محرومة من حكوماتها الوطنية، وهى فى نظره لا تعدو كونها ممتلكات أو محميات أو أقطارا لا يشارك سكانها فى انتخاب الأجهزة الإدارية العليا فيها.

د- وأوضح مندوب الهند أنها أقطار مستعمَرة لا يمارس سكانها حقهم فى الحكم الذاتى، ولا فى تحديد وضعهم الاقتصادى، ولا يتمتعون بثمار المنافع الاجتماعية، بل تتولى دولة أخرى بالنيابة عنهم عمليات التنظيم هذه بمعرفتها.

هـ- وأخيرا أقر المندوب المصرى بوجود حالة تبعية قسرية تخضع بموجبها هذه الأوطان لإدارة دولة أخرى لا تمت لها بصلة القرابة (See: U.N. Documents, 1946, p.56).

بناء على هذه القراءات المتباينة تبدو جميع الأوطان الواقعة خارج البلد الأم التى يتميز قاطنوها، ثقافيا وحضاريا، عن البلد الأم السائد، يمكن تصنيفها ضمن الأقطار التى تخلو تماما من الحكم الذاتى (See: Sady. J., 1957, pp. 79-87).

ويستخلص من هذه التأويلات ما يأتى:

١- أن الأقطار المهيمن عليها لا يحكم سكانها أنفسهم بأنفسهم.

٢- وضع اللامساواة أمام القانون من منظور أن سكان البلد الأم يتمتعون بوضع قانونى مريح: حق حكم أنفسهم بأنفسهم.

٣- أن الإدارة والمسئولية المدنية فى القطر المستعمَر منوطة بالدولة المهيمنة.

٤- لا يشارك سكان القطر المستعمَر فى الانتخابات المتعلقة بشغل الوظائف الإدارية العليا، بل يتم تعيين المسئولين من قبل الدول المهيمنة بمعرفتها.

٥- تشتق حقوق السكان الاقتصادية والاجتماعية من مرجعيات وتنظيمات ولوائح معدة أساسا من قبل سلطات أجنبية.

٦- يبدو الوضع القانونى لسكان القطر المستعمَر لا تمليه وشائج القربى (الروابط الدموية والتاريخية والحضارية والجغرافية)، بل جاء نتيجة لشروط نماذج مصطنعة لعامل الغزو أو التنازلات الدولية.

٧- تنتمى الشعوب المستعمَرة إلى مجموعات إثنية وثقافية مغايرة تماما للقوة الاستعمارية، فهم يتحدثون لغة مغايرة ويدينون أيضا بدين مخالف للدول القاهرة.

السيكولوجيا - الاجتماعية للمجتمع الجزائرى المستعمَر:

يمكن النظر إلى الشخصية القاعدية الثقافية الجزائرية حسب المقومات التى تضمنتها نتائج "كاردينر" (انظر: عبد الله حامد ربيع، ١٩٧٢، ص١٦٥):

١- أدوات التفكير التى يفكر بها الجزائرى؛ أى تلك التى يتأمل بها ما يدور حوله من ظواهر، والتى بالاستناد إليها يتصرف فى مواجهة تلك الحقيقة.

٢- نظم الضمان التى يحفظ بها وجوده فى مواجهة حالات التوتر والقلق الناجمة عن عقد الذنب الناتجة عن أوضاع مادية واجتماعية مهزوزة.

٣- وسائل الحصول على احترام الآخرين وكسب صداقتهم.

٤- الاتجاهات الدينية من حيث تأثيرها فى السلوك الفردى والجماعى.

لقد شكك معظم الاستعماريين الفرنسيين فى قابلية المجتمع الجزائرى للنماء الثقافى بعد أن أجهزوا على المؤسسات الاجتماعية الجزائرية ومقوماتها الروحية والحضارية وكتب "جورج هاردي" سنة (١٨٧١) (انظر: أحمد طالب الإبراهيمى، د.ت، ص١٦):

"إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية فى مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وأخلص فى خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالى منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية والثقافية وتقاليدنا. فالمقصود إذاً باختصار، هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكى تتكيف فيها عقولهم حسب ما نريد".

عولج الانحياز الثقافى "Cultural Bias" ليشير هنا إلى تلك القيم والمعتقدات المشتركة لخدمة المصالح العليا للاستعمار، وهو ما يجابه بانحياز ثقافى آخر منافس له يبديه الجزائريون بابتداع طريقة متميزة فى النظر إلى العالم "Weltanschauung"؛ إذ أقبل بعض الجزائريين على المدارس الفرنسية من خلال قانون (١٨٨٣) الذى خول للسلطات الاستعمارية خلق نظام تربوى جديد، مثلما تم وضعه فى فرنسا الأم. لكن هذا القانون جرى تفعيله من خلال نص قانونى جديد سنة (١٨٩٢)، يمنع المدارس القرآنية (الكتاتيب) من فتح أبوابها للناشئة فى أثناء أوقات الدوام الرسمى إلا بأمر استثنائى؛ أى بموجب حصول المدرسة القرآنية على إذن مسبق بذلك (Voir: Djeghloul - A: 1983, p.6 et suivantes...).

وتبدو رؤية العالم بطريقة معينة مسوغة لوجود نموذج معين، متآلف معها، ليعكس العلاقات الاجتماعية، الداخلية والخارجية، على حد سواء، وهذا ما يطرح عدة تساؤلات جوهرية؛ منها:

١- هل توجد شخصية قاعدية جزائرية واحدة مستمرة فى التاريخ الجزائرى الحديث؟

٢- هل توجد شخصية قاعدية جزائرية واحدة وموحدة؟ أم أن الجزائر بها شخصيات قاعدية متعددة؟ وهناك أسئلة أخرى لا يتسع المجال لطرحها، حسبنا رصد بعض التفاعلات بين الجزائريين المستعمَرين والسلطات الكولونيالية، وما تفرزه من بنية ذهنية

متدرجة تتضمن النقاط الآتية:

أ- ظهور العصبية ابتداء من صلة القربى وانتهاء بالرابطة المعنوية (الإسلام).

ب- فكرة السياسة مقابل فكرة الدين (بروز روابط أيديولوچية أعم من الروابط العصبية).

ج- أن قوى الاستعمار والتسلط تحفر قبرها بوساطة معولى الظلم والاستبداد من جهة، والتحقير للجزائريين وتشييئهم Chosification من جهة أخرى.

د- أن البشر يحملون بقايا ثابتة شديدة "Residues" من تكوينهم الأولى، وهى العدوانية (الشراسة) التى يلوحون باللجوء إليها بوصفها آخر ملاذ لتوكيد الذات واكتساب القوة والاحترام. لقد واجه الجزائريون مواقف لم يتنبئوا بها، ولا كان لديهم من القدرة على تفسيرها، ولم يعدوا العدة لمجابهتها، أو حتى التكيف معها لتقليل الأضرار. ويكفى الحديث عن تعدد مظاهر التخريب المادى والمعنوى التى آلت إلى نوع من العنف الهمجى، بدعوى وذرائع مزعومة لتسويغ طرق الترويع والتقتيل والإذلال. فلقد علق (إيمى سيزار) على الاستعمار الفرنسى قائلا: "إن الحضارة آل الأمر بها إلى الانحطاط بدل التقدم" (انظر: أحمد طالب الإبراهيمى: د.ت، ص١٥). وفضح "ألبير ميمي" (Memmi, A: 1957) جرائم الاستعمار الفرنسى فى أثناء الاحتلال، وأوضح فى كتيبه صورة المستعمِر مقابل صورة المستعمَر، وقام بنقل ملاحظاته الدقيقة للأفعال السلوكية (الخارجية) لدى المستوطنين والجزائريين، وهم يتصارعون من أجل البقاء "Survial".

والشيء ذاته ورد عاريا فى كتابات "فرانزفانون"، من خلال معايناته التحليلية السريرية، بوصفه أخصائيا، فى الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية (Voir: Fanon, F: 1961)، وهى جميعها مؤلفات واسعة التداول تشهر بالاستعمار، إعلاميا وسياسيا، هذا فضلا عن رسائل الرحالة والجنود والأدباء والمؤرخين وفلاسفة العقائد الأخلاقية وغيرهم.

وظهرت علوم سوغت للسلوك الاستعمارى، فقد ادعى بورو "Porot" الطبيب أن الجزائريين متخلفون عقليا فى أول مؤتمر عالمى لأطباء الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية فى بروكسل (بلجيكا) سنة ١٩٣٥ (Voir: Bensmail, B: 1994, p.25).

على الرغم من سيادة المشهد المأساوى واستغراقه فى الزمن وفى الذات الجزائرية تحديدا، وتساوقه مع انقسام المجتمع الجزائرى إلى شرائح اجتماعية متعددة، تتسم بنموذج حياة خاص، وبرؤية متميزة ومتبلورة كثيرا أو قليلا حول العالم والواقع؛ فإن ذلك لم ينل من عزيمة الإنسان الجزائرى المؤمن بعدالة قضيته، فاختار المقاومة ونوع أساليبها، أملا منه فى الخلاص من الاستعمار، ووضع مجموعة من المقولات التى تقترب كثيرا من نتائج "كاردينر".

فما البدائل المتاحة لمقاومة الاستعمار والمستوطنين؟

١- **التحصن بالقبلية:** وقع اللجوء إلى القبلية بوصفها وحدة اجتماعية جوهرية، من خلال التحرك وفق إرادتها؛ لأنها المرجعية المشتركة للأفراد والتمكين لها من جذب الأنصار وزيادة دائرة تحالفها مع غيرها لتغطية منطقة شاسعة، لتغدو قوة عسكرية وسياسية تسيطر بقوة على الأرض وخيراتها، وأن الصدام المسلح مع الاستعمار والمستوطنين صراع من أجل البقاء، فالتحصن

بالقبيلة جعلنا نقبل أن عالم ابن خلدون مازال موجودا بأشكال ودرجات متفاوتة في الجزائر غداة الاحتلال وبعده.

٢ـ **التحصن بالدين:** تؤدى الطقوس الدينية وظائف نفسية، تلطف من مقدار معاناة الألام المعنوية التى أفرزها الواقع الاستعمارى. فالعودة إلى الدين والسلف الصالح تحديدا، منهجا وتفكيرا، يعد نكوصا "Regression"؛ لأنه لا يغير من الواقع المجتمعى المغبون شيئا، إنما يعمل على تغيير الدلالة المعنوية للذات المهزوزة والمضطربة والمغلوبة على أمرها. ويدخل الدين بعض التفاؤل إلى النفس، عساها أن تسترجع ما فقدته ماديا ومعنويا. إن الجزائريين فى معظمهم عرب مسلمون، ويؤكدون حاجتهم إلى الهوية، ولكن فى تعبيرات إسلامية، يجهرون بها بأوضح ما يكون فى اهتماماتهم وانخراطهم بقوة فى إدارة الصراع مع المستوطنين والسلطات الاستعمارية، سعيا منهم للتحكم فى المصير، ولكن بمسحة إسلامية قوية، واقتران الإسلام عند الجزائريين هوية لهم حتى بعد رحيل الاستعمار (Voir: Korso. M: 1983 p.97 et suivantes...).

٣ـ **التحصن بآليات دفاعية غريزية:** إن التجاذب المتنصف Dichotomic للشخصية الجزائرية المقهورة عمل على تعميق أزمتها النفسية والوجودية مقدار التناقض الحاد بين الطموح المفرط، والواقع المأزقى. فالاختيار المتاح يكون باعتماد أسلوب التماهى مع المعتدى. وينشغل الجزائريون بأشكال المخاطرة المتنوعة، ويدركونها على أنها عملية اجتماعية تتيح فرصة بدون الجزم بدرجة النجاح أو خطر الفشل .. إن الخشية كل الخشية من خطر أن تحدث عدوانية المستوطنين عندما يحس الإنسان الجزائرى بعجزه عن التصدى لهذا الخطر بقواه الذاتية، ويجعل أناه شديد القلق والتوتر. وهنا يلعب الإنسان الجزائرى المقهور دورا عدوانيا يوقعه على مستوطن أو على مزرعته فى حالة من نفى لخوفه وضعفه وإسقاطه على هذا المستوطن/

المستعمر دون غيره، ويحدث هنا قلب للأدوار، أنا أخيفه، هو الضعيف.

لقد عبر بعض الجزائريين عن قلقهم، خاصة أولئك الذين تموقعوا منهم فى خانة طريدى القانون بتماديهم فى التمرد، ولم يقيموا وزنا كبيرا للموت ... ولقد أسهم شحن الشخصية الجزائرية بانفعالات تفضى، بكل أسف، إلى العنف لمجابهة عقد الذنب الناجمة عن سوء الأوضاع المادية والمعنوية، وما تخلقه من توترات هى غاية فى التعقيد، فالبعض يسميه تهورا، والبعض الآخر يسميه مخاطرة، غير أنهما من الآليات الدفاعية التى يستخدمها الأنا لمجابهة القلق والتوتر اللذين أفرزهما الوضع الاستعمارى الاستيطانى.

٤- المتانة المنطقية المشوشة أمام التسلط والعدوان المستمر والاستباحة والترويع والتقتيل، فالعجز عن المجابهة المنطقية يغدو منعدما، ويتعرض التفكير لخلخلة تضطرب معها منهجية التفكير المنطقى عبر الاستسلام للقدر Fatalist وتقبله أو التسليم به أو التوهم بتقبله؛ لأنه لا توجد لديه إجابة جاهزة عما يحدث له، ومن حوله، ويفتقر إلى الحلول. فاللجوء إلى الماضى "المجيد" والتباهى بأبطال التاريخ الجزائرى والإسلامى يدل على ارتباك واضح فى التفكير لدى الإنسان الجزائرى تنتهى به إلى أوضاع التزلم، وأخرى عدوانية باطنية لا تتردد فى استخدام تفكيرها المشوش بالشروع فى الثورات الشعبية المتلاحقة، عن طريق المحاولة والخطأ، عندما تحين الفرصة بذلك (مشروع الأمير خالد، حوادث ٨ مايو ١٩٤٥). بذلك تعددت الأطر الفكرية وتباينت المنطلقات الأيديولوجية للجزائريين بفعل ما بثه الاستعمار والمستوطنون من أفعال وأقوال، حقيقية أو وهمية، تتعلق بفساد نمطهم الثقافى وتخلفه، وهو أمر يدعو المرء إلى استعادة ذاكرته الجماعية، والقيام بترتيب خبراته السابقة، وفى ضوء حاضرها... وهو ما أحدث ظاهرة سقوط هذه الفئات المجتمعية الفاعلة فى مصيدة الغرق فى الثنائيات، وتركزت حول قطبين كبيرين:

١- توجه وطنى عروبى - إسلامى استقلالى.

٢ـ توجه قدرى، وانقسم إلى:

أـ توجه فرانكوفونى اندماجى مع فرنسا.

بـ توجه إصلاحى عروبى - إسلامى تحت الوصاية الفرنسية.

وهنا طرحت أفكار: الاستقلال والاندماج والوصاية. فالاستقلال أو الاندماج أو الوصاية عن ماذا أو فقط؟ ولكن الاستقلال أو الاندماج أو الوصاية عن ماذا ومن وبمن ومن أجل من وكيف؟

فى إيجاز، تعاملت هذه الأقطاب مع الاستعمار، وفشلت فى تحريكه قيد أنملة، غير أن وعى بعض الجزائريين وإرادتهم وحركتهم الاجتماعية التاريخية المتطورة عبر الزمان والمكان أنتجت تجمعا سياسيا، هو: حزب جبهة التحرير الوطنى فى هيئة هرم: قاعدته الجماهير ورأسه قيادة جماعية، ويتبعهم أعضاء الطليعة بشكل تراتبى. وبذلك انتقلت الثقافة السياسية من جيل إلى آخر، وتعرضت لقدر من التحول والتغير بصورة ما ... لقد تم تأجيل هذه الثنائيات العقيمة لأجل غير مسمى، بسبب الثورة وظروفها، وتلاشت الثقافات السياسية المتنافسة، مرحليا واستراتيجيا، واستبدلت بثقافة سياسية واحدة وموحدة فى نضالها، تركز على الطابع الوطنى الجزائرى، وتبرز اختلافاتها الجوهرية للخصائص القومية مع الاستعمار.

٥ـ **الاحتذاء بالنموذج:** لقد أحدثت الصدمة الاستعمارية شرخا عميقا فى سيرورة التاريخ الفردى والاجتماعى المعاصر للجزائريين، وبقى سجين الأيديولوچيات، وبات خاضعا لخطابات "انفعالية"، وظفتها السياسة إلى أبعد الحدود. فطبيعة الصراع السياسى والحضارى العام مع الاستعمار الفرنسى ومستوطنيه حتم صياغة نوع من الصورة الذاتية للإنسان الجزائرى، وتحديد أبعاد شخصيته الوطنية التى استنفد الاستعمار قواه لطمسها ومسخها وتفكيكها، لكى لا تبدو فى مرآة الآخر بالمثالية العارمة، وبدأ مسعى التغيير فى الشخصية

الثقافية القومية من خلال اتخاذ بعض الجزائريين اللغة الفرنسية، وأتقنوها بوصفها، صناعة ووسيلة للعيش، وهذا التصرف ينم عن أحد أشكال التمرد الثقافى والحضارى بتنكر معظمهم للهوية الأصلية، ظاهريا، فتعرض الذهنية الجزائرية لحاجات عالم الضرورة من جهة، واستسلامها لعمليات غسيل المخ "Brainwash" من جهة أخرى، حولاها إلى سلاح فتاك يستخدمه الاستعمار بأيدى جزائرية فى تحطيم القيم الحضارية والاجتماعية والثوابت الوطنية لمعظم الجزائريين المحرومين والمقهورين.

لقد انبهر معظم مثقفينا، عقولا وأفئدة، بقيم الاستعمار "الاستعراضية"، وتموقعوا بها بوصفها أوليات دفاعية. فالانخراط فى الثقافة الفرنسية معناه نجاح اندماجهم فى النظام الاستعمارى، ولكن بشكل مهزوز؛ يبدون ولاء وانتماء له، واستهجاناً ممزوجاً بالإعجاب، فوضع هؤلاء المحظوظين بقدر ما يتجاوب مع متطلبات عالم الضرورة، كليا أو جزئيا، ومع عالم التسلط أيضا فإنه لا يطمئن النفوس على المستقبل، وبدت ظاهريا شخصية منفصمة "Dissociated Personality"، لما يعتريها من خلل عقلى مصحوب باضطراب الوعى، تتغير فيه الذات وتتفكك هويتها، ويكون للإنسان شخصيتان أو أكثر. فالوضعية الحرجة هى فعلا وضعية استسلامية، والتغافل عن نوعية التغير الجذرى "الاستقلال" الذى يحفظ مصالح هؤلاء "المتفرنسين" قناع ومصالح بنى وطنهم (جلدتهم) فى الجزائر ومستقبلها فى مستقبلهم.

فالذوبان بهذا الشكل، والتوحد مع المستوطنين، يمثل بحق الظهير الداخلى للاستعمار والمستوطنين (See: Salih, Z.H., 1986)، بذلك جاء الاحتكاك بالحضارة الفرنسية والافتتان بقيمها الثقافية والأدبية بوصفها النموذج الفعال والجدير بالتقدير، ومن ثم ظهرت وتجسدت جزئيا فكرة "النموذج"، من خلال الاحتذاء بالغرب، من خلال هؤلاء "المتأثرين"، وتذبذب فهمهم لهوية شعبهم الإسلامية، وظهرت - بل تعمقت - الفجوة التى تفصل بين هؤلاء

"المتفرنسين" ومكونات الشعب الجزائرى الأخرى؛ أى وقع اقتحام للعصر، من خلال نموذج جاهز، ولكنه "غير مناسب"، وهو ما وضع هذه الفئات المروجة له فى مأزق المثال المطلق الذى يفقد الذات جزئيتها فى الاختيار.

وفى المقابل، غدا هذا الانفتاح الحر على الفضاء الفرنسى، من وجهة نظر دعاة "الخصوصية" فى الشخصية الجزائرية وتمايزها ثقافة وحضارة عن فرنسا، مصدرا للانفصال والتمرد على المجتمع، وبذلك اكتسبت هذه الطروحات التغريبية طابع المأزق، من خلال تضافر العوامل الآتية:

١ـ ضغوطات عالم الضرورة والعجز المسجل لدى الجزائريين فى تصديهم لمشكلات الحياة المختلفة من جهة، وتناقضها مع ما تخلقه من اتجاهات "واقعية" تتآلف مع المعضلات الوطنية والاجتماعية من جهة أخرى (الثقافة السائدة).

٢ـ بروز الميول الاختزالية "Reductionnist Tendency" والتعلق بالحلول الخرافية بوصفها حلولا سحرية عند الفشل أمام الأزمات المجتمعية، وعلى رأسها استعادة السيادة لاستعصاء حلها.

٣ـ حرمان التفكير الجزائرى من أهم إمكانات المجابهة العقلانية والموضوعية مع الاستعمار والمستوطنين، بوصفه واقعاً، وفرض عليه تجسيد "الاستقلال" عبر أحلام اليقظة فقط، بغض النظر، عن الشعارات البراقة؛ مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان.

تلك هى عقلية خرافية تحاول الوصول إلى أهداف الفرد والمجتمع دون سند علمى أو منطقى يشكل قوامها؛ أى أن الذهنية الخرافية هى "تلك التى يكون فيها للخرافة مكان بارز، سواء فى نقل المعلومات أو تمثلها فى تفسير الأحداث أو تحليلها" (انظر: إبراهيم بدران، وسلوى خماش: ١٩٧٤، ص١٢).

وتأسيسا على ما سبق، يتضح أن من يُعتدى عليه لا يستطيع تحمل

العدوان والعجز هكذا ببساطة، كما أنه لا يستسيغهما بواقعيتهما المادية إطلاقا، مهما كانت درجة تخلفه. وتتحدث كتب التاريخ عن استمرار المقاومة المسلحة، وطغيان الجانب الرمزى منها، بدون تعديل يذكر فى السلوك الاستعمارى، فالمقاومة لم تكن فعالة على الإطلاق لتحكم المرتبية الجامدة من جهة، وانتشار البنى التسلطية الرضوخية من جهة أخرى.

إن خيار المقاومة كان الخيار الوحيد المتاح، وفرض نفسه بقوة على الجزائريين، فأفرز بذلك تفاعلات سلبية مع الاستيطان، وبتبعاته نمت شخصية قاعدية ثقافية جزائرية صعبة المعاشرة شرسة وعنيدة "Stubborn"، عجلت بسقوط الاستعمار، لا فى الجزائر فحسب، وإنما فجرت حصونه فى كل أصقاع الدنيا، واكتسبت الثورة الجزائرية وقيادتها صفات القدوة والقدسية والإنسانية.

وتوكيدا للذات واكتسابا لاحترام الآخرين أضحى تسليم الجزائريين والدائرتين القومية (العربية) والإسلامية بتحقيق اليوم العظيم "استقلال الجزائر" وافتكاكه بقوة وبمهارة، يعد أعظم انتصار يحققه العرب والمسلمون منذ الحروب الصليبية.

ومهما كتبنا عن تضحيات الجزائريين ونضالاتهم واختناقاتهم ومعاناتهم وحبهم لوطنهم ولدينهم؛ فإننا لا نكفيهم حقهم، حسبنا القول: إنك تستطيع اجتثاث الناس، ونقلهم خارج أوطانهم، ولكنك لا تستطيع أن تأخذ هذا الوطن خارج موقعه.

بعض مميزات الشخصية القاعدية الثقافية الجزائرية:

إن حالة الجزائريين فى تثاقفهم مع الفرنسيين، وحال هؤلاء مع الجزائريين أيضا غلب عليه رد الفعل الرافض والمتبادل بين عنصرى السكان، وهو ما تميز بحضور توكيدى رمزى للشخصية العربية والمشتركة لجميع

الجزائريين، ومثلتهم أحسن تمثيل ثقافى وحضارى مميز، مقابل الشخصية الفرنسية.

فمن المفيد هنا الاستعانة ببعض الدراسات التى تناولت هذا الموضوع من قريب أو من بعيد، أو كانت مجالا للملاحظات الحقلية، من خلال الوجود الفردى والجماعى للجزائريين فى حياتهم اليومية داخل الجزائر وخارجها.

ولتفسير تواصل الشخصية القاعدية الثقافية للجزائريين تاريخا نورد دراسة الباحث "محمد حافظ دياب" (١٩٧٩) التى يظهرها فى أبهى صورها فى تموضعها خارج الجزائر، وتحديدا من خلال الجالية الجزائرية فى مدينة مرسيليا (فرنسا)، واستطلع فى دراسته هذه عددا من المهاجرين (٢١٨)، وتم وضع عدد من المؤشرات تبحث فى القبول الاجتماعى، وجاءت النتائج كما يأتى:

١- **الجيرة:** لاحظ الباحث عن كثب تمركز إقامة الجزائريين فى محيط يختلف عن بقية المكونات للنسيج العمرانى لهذه المدينة، وبذلك، فهو يشير إلى وجود عزلة مجالية "Spatial" متبوعة بعزلة أخرى نسبية نوعا ما، تميز علاقاتهم السطحية مع نظرائهم الفرنسيين فى عنابر العمل. فغياب التواصل الاجتماعى بين المهاجرين وسكان المجتمع المحلى أدى إلى العزلة، وعدم الرغبة فى الاختلاط. ذلك ما يعزز الإحساس القوى بالهوية الثقافية والإثنية لدى المغتربين، وما يعانونه من مشاعر التعصب والعنصرية والعداء.

٢- **الصداقة:** عبر ٩٧% من المستطلعين عن هذا الشرط فى التمثيل الثقافى بأنهم يوزعون صداقتهم فى اتجاه الدائرتين القوميتين المغاربية والمشرقية.

٣- **الزواج:** صرح ٠,٥% من المستطلعين بأنهم يرتبطون بزيجات مشتركة Mixte، ويرجع انخفاض معدل المصاهرة إلى:

أ- الاختلاف الثقافى بين الجماعتين الإثنيتين (فلسفة الحياة، وطرق المعيشة، ومجموعة القيم والمعايير والأنماط السلوكية ... إلخ).

ب- التمايز القائم فى التقسيم المهنى، وتوزيع الدخول، وما يترتب عليه من انعكاسات بينهما.

٤- **التجنس:** هو أرقى صور الاندماج للقبول الاجتماعى، غير أن ٥٥,٦% من المستطلعين أبدوا امتعاضا شديدا نحوه، بل إنهم يرفضون التجنس، ويؤكدون رغبتهم فى العودة إلى الجزائر، إذا فرض عليهم ذلك.

ويخلص الباحث إلى عرض جملة من الخصائص والأنماط السلوكية المميزة "جزائريا"، برغم حذق الجزائريين للغة والثقافة الفرنسية، غير أن المهاجرين يبدون مقاومة شديدة من خلال تمسكهم بالتقاليد والعادات الدينية والوطنية، والاستمرار فى اختيار الأسماء العربية للأطفال.

وفى دراسة (عبد الله ساقور: ١٩٩٩، ص٣٨٨-٣٩٧) استطلعنا عينة قوامها (٥٤) فردا من خلفيات اجتماعية مختلفة لمعرفة رأيها فى بعض الخصائص الوجدانية والنزوعية والإدراكية والعلائقية للمواطنين الجزائريين، حسب الآتى:

١- **الود والصداقة:** يبدو المواطن الجزائرى شبيها ببعض الناس، ليس فى الود والصداقة فحسب، وإنما فى الحب والعدوانية أيضا، يؤكد ثلثا العينة وجود العبارة بقوة، فى الوقت ذاته عبر ثلث العينة بالوجود القليل إلى حد التبخيس. وهى وحدة وصراع متضادان مطلقا؛ هما: الود والصداقة من جهة، والحقد والكراهية من جهة أخرى، وتلازمهما فى الحضور، للدلالة على ظاهرة انشطار "Ambivalence" وجدانى يفيد بوجود مشاعر الود والصداقة وفقدانهما فى الوقت ذاته، فنظرة فاحصة إلى هذا البُعَيْد تفيد:

أ ـ أن المبحوثين أكدوا قوة الود والصداقة لدى الجزائرى، فربما يعنون تودده وتقربه إلى من يهدد مصيره بمناسبة تفشى ظاهرة العنف فى المجتمع الجزائرى.

ب- أن قوى التسلط فى المجتمع تحد من نمو الشخصية فى اتجاه مستقل ونحو التغيير فى نوعية الحياة الاجتماعية.

٢ـ **الغرور:** عند إدماج نتائج وجود الغرور بكل درجاته، كثيرا، ووسطا، وقليلا، نخلص إلى أن ٩٦,٢٩% من المستطلعين أفادوا بتمكن الغرور من شخصية المواطن الجزائرى إلى حد التهور، لكن الغرور بقدر ما هو سلبى، فهو ذو طبيعة استرضائية أيضا، ووسيلة مهمة للحفاظ على تماسك الذات حتى فى أحلك فترات وجودها، ويسهم فى كبح عدوانية الآخر: القوى المتسلطة إلى حد ما، ويوقف الاقتتال عند حدود غير مؤذية، وقد يؤدى إلى بروز سلوك الود والصداقة والمشاركة بين مختلف المتفاعلين المتصارعين، نحو المحروم والعاجز والمقهور.

٣ـ **طيبة القلب/ حسن النية:** مؤشر قوى حاضر فى الشخصية الجزائرية مقداره ٩٤,٤٤%. لكن هذا يعنى:

أ ـ أن طيبة القلب/ حسن النية تخفى كثيراً من المشاعر والأحاسيس بعدم وجود أمن أو انسداد أفق المستقبل على مستوى الأفراد.

ب- على مستوى القيادة الاجتماعية يتخذ طابع الاستعراض النشط والإقدام على مشاريع إنمائية ضخمة ذات وجاهة وطنية، لكنها ليست فعالة، ولا تنال من التخلف قيد أنملة.

ج ـ تبدو طيبة القلب/ حسن النية سلاحا ذا حدين، يستخدم لاكتساب الاحترام من جهة، أو إضفاء مزيد من الشرعية، عندما يتعرض

الفرد القائد لتهديد ما من جهة أخرى، فلن يعدو أن يكون سمة لوضعية الاتكال لتعويض القصور المسجل والتعبئة المتزايدة للأخرين، ردما للهوة، التى تفصل بين الطموح من جهة، وصعوبة التنفيذ من جهة أخرى.

٤- **مستوى الذكاء والفهم:** اختلفت العينة المبحوثة فى تقديراتها لهذين المؤشرين، وجاءت تقديراتها حسب الخلفية الاجتماعية، لكن من أنكر النضوج العقلى للجزائرى هم (٣) مبحوثين، تبين أنهم مسئولون سامون سابقون فى الدولة الجزائرية، فهم لا يزالون يعيشون حالة الشعور بتلك العلاقة الدمجية الذوبانية لإلغاء كل استقلالية فى التفكير الحر والعمل وفرض مبدأ الوصاية على مواطنيهم.

٥- **التعاون بين الجزائريين:** تبين وجوده بقوة ٩٢,٥٩% فى المجتمع الجزائرى، وقد اختبروه فى عدة مظاهر للتفاعل الاجتماعى، وغدا نمطا من أنماط سلوكهم، من خلال التجارب التقليدية (التويزة)، ومن خلال التعاونيات المسيرة ذاتيا ... غير أن هذه التجارب استنفدت جميعها، ووضع لها حد فيما بعد ... لكن بدون أن يحل محلها نظام آخر للتعاون. وهو ما يؤدى بالآخرين إلى الانغلاق على الذات، وتنهار معها علاقات التفاعل والمشاركة الاجتماعية.

٦- **ثقة الجزائريين بالدولة:** لقد أبدت العينة المستطلعة افتقارها إلى الثقة بدولتها الوطنية، باستثناء (٣) مبحوثين؛ إذ يعتقدون أنها كثيرا، وهم من المسئولين السابقين، وعليه؛ فإن مساحة الصداقة والود للسلطة السياسية المتعاقبة على حكم الجزائر هى فى انحسار وتهافت، برغم ما تبذله القيادة الملهمة من جهود، فرؤيتها الذاتية ودورها هى الأخرى ومكانتها فى التغير سيتولى التاريخ وحده تقويمها، وبذلك توارثت هى الأخرى الإحباطات المتتالية برغم وجود الحماسة وحرارة العواطف والإخلاص والصدق للقيم الحضارية،

غير أن أفراد العينة قوموا تبعات المراكمة الاقتصادية والسياسية على وجه التحديد، واتضح أن الشخصية الجزائرية لا تزال تتشكك فى قدراتها، وما بثته فيها الممارسات السياسية المختلفة من خوف وجزع وشك فى عقولها وإرادتها، ففرضت انسحابها بطريقة أو بأخرى.

وأوردت أوصافا للشخصية الجزائرية؛ منها:

أ ـ شخصية مرهفة الحس، وعزيزة النفس (عزة الشرق).

ب ـ شخصية متوترة، وكثيرة القلق، وسريعة الاستجابة (بأس العرب).

عولج تحليل السمات الفردية، على أن الكل الاجتماعى لا يطابق مجموع أفراده، وعليه؛ تغدو الشخصية القاعدية الثقافية مفهوما اجتماعيا تسهل عملية استنتاج بعض الميزات على هدى ما سبق؛ منها:

١ـ شخصية صبورة لا تعرف الكلل ولا الانسحاب برغم محاولات التبخيس اليومية المسلطة عليها من قبل المستوطنين أو المتسلطين عليها.

٢ـ شخصية منفعلة بالتاريخ وحاضرة فيه بقوة، تمكنت من أنسنته، ولقنته دروسا نموذجية فى الأخلاق غالبا ما تتناقض مع مجريات التاريخ وجدليته.

٣ـ شخصية مهووسة بالصراع، ويزداد شدة مع مصادر السلطة السياسية التى تبتعد عن مقومات هويتها الثقافية والحضارية، ولا تقيم وزنا لها على الإطلاق. فالشخصية التى تخلو من صراعات مع الآخرين تعد شخصية ضحلة على حد تعبير "سيجموند فرويد".

٤ـ شخصية انفعالية وعنيدة وتهوى المخاطرة فى حل مشكلاتها، وتستسهل اللجوء إلى استخدام الإكراه والعنف.

٥- شخصية جاهزة ويقظة دوما للفعل المباشر فى نظرتها إلى الذات وإلى نفسها وإلى الآخرين وإلى العالم، لتسكن روحها، شخصية تكتفى بالأنى وطموحاتها محدودة.

٦- شخصية متجذرة ومذابة فى جماعاتها الأولية (الأسرة، والعرش، والعشيرة) التى يسودها نظام للتضامن الآلى فيما يتعلق بحياتها الاجتماعية، وتنظر إلى المرأة بشيء ممزوج متكافئ فى التقديس والتدنيس بوصفهما مصدرين للحياة والعار معا.

٧- شخصية "متأزمة" مختزلة إلى مرتبة الشيء، بفعل العلاقات الصراعية المستدامة التى نالت من قيمة الإنسان الجزائرى، من خلال استمرار مسلسل حالات القتل والاعتداء والاستباحة.

٨- شخصية مركبة من سلسلة من التماهيات الجزئية المتنافرة تارة، والمتناقضة طورا آخر، ليبلغ فيها حد الاقتناع الراسخ لديها، بأنها النموذج الأسمى الجدير حد الذوبان، حتى فى الغريب.

٩- شخصية سريعة الاستجابة للدين، وتتخذه أداة تبنى عليه عمليات إرجاع الأثر بوصفها وسيلة للضبط الداخلى، وتتم القولبة فى صيغ جامدة وثابته تتخللها بعض الممارسات والطقوسات الوثنية.

١٠- شخصية اتكالية أبطالها الحقيقيون والوهميون مقتدرون على تغيير الواقع المأزقى، فعلاقاتها بأبطالها/ قادتها سحرية.

١١- شخصية ذات مرجعية ذهنية خرافية، قليلة الإقبال على العلم، ولا تقيم له وزنا، ولا لعلمائها، ولا تعتنى بالكتابة والكتب.

تلك هى بعض الجوانب التركيبية والذهنية والسلوكية لسمات الشخصية القاعدية الثقافية الجزائرية فى خلال مرحلة الاستعمار، ومازال معظمها صالحا لليوم؛ إذ لم تتم دراسة هذه السمات ولا القيام بعمل ما لتحسين أو تصويب أو

تقويم بعض من جوانبها، ويعود هذا فى جزء كبير منه إلى حالات الاختناق والتوتر والفوران والثورة، بمناسبة مقارعة الاستعمار من جهة، وحالات عدم الاطمئنان إلى المستقبل فى الوطن بعد الاستقلال من جهة أخرى. فمن المنطقى أن عالم الضياع الذى يعيشه معظم الجزائريين اليوم تضطر فيه الشخصية القاعدية الثقافية الجزائرية إلى أن تمارس فعاليتها الخاصة لاستكمال بنائها المستقل، وهذا من منطلق أن المجتمع الذى يواجه الخوف والقلق، بوصفهما عائقين أمام مواجهة حرجة، فإنه لامناص له من أن يكتشف حقيقة وجوده، ويصبح فى إمكانه أن يتغير، ويغدو هُوَ هُوَ.

خاتمة:

لقد تمت معالجة قضية التفاعل مع الاستيطان فى بيئة جزائرية حرجة جدًا، من خلال عرض للشخصية القاعدية الثقافية للجزائريين، وهو موضوع فريد من نوعه فى الدراسة السوسيولوجية. وبرغم المحاولة التى بذلت فيه بدقة وتفصيل، فهو أعقد من أن يحيط مقال واحد بكل جوانبه. على أية حال، فالتركيز على عرض بعض محاولات الصراع مع الاستعمار ومستوطنيه وسبل التحكم فى المصير من خلال التحصن بالعائلة وبالدين والبنى الذهنية والعقلية، وما آلت إليه من احتذاء للنموذج ... جميعها أسهم فى حسم المعركة مع الاستعمار على أرض الجزائر قبل سجالات الأمم المتحدة، واحتضانها للقضية الجزائرية طيلة سبع سنوات ونيف ... فتتبع المفاهيم والعلاقات مسالك يتبعها الفكر البشرى. وكم نحن محتاجون إلى تصويب رؤانا عن الذات الشخصية لتخطيط التغيير المنشود!

الهوامش:

١ - **الاستدمار**: مقولة ابتدعها المفكر المرحوم مولد بلقاسم نايت بلقاسم فى منتديات الفكر الإسلامى للدلالة على ما قام به الاستعمار الفرنسى من تدمير للبنى المادية والفكرية والروحية للمجتمع الجزائرى. وله عدة مؤلفات حول هذا الموضوع؛ منها: "لمحة عن مجد الجزائر وديمومة شخصيتها البارزة عبر العصور والأعاصير"، مجلة الثقافة عدد ٨٥، وزارة الثقافة والإعلام - الجزائر ١٩٨٥.

٢ - Pieds-noirs الأقدام السوداء: مقولة تطلق على أولئك المستوطنين الأوربيين الذين ولدوا فى الجزائر غداة الاستقلال سنة ١٩٦٢.

٣ - تفيد البيانات الإحصائية التاريخية أن الموجة الأولى من المستوطنين تشكلت من العمال الجمهوريين الذين استسلموا للسلطات الفرنسية، ووقع نقلهم لتعمير الجزائر سنة ١٨٤٨، كما وقع نقل عدد كبير من العمال العاطلين عن العمل من باريس، وبمعية عدد من المنفيين سياسيا (١٨٥١). وبعد قرار ضم ألمانيا لمقاطعتى الألزاس والألورين سنة ١٨٧١ تدفقت على الجزائر موجة من المهاجرين من هاتين المقاطعتين، واستمر تدفق المستوطنين على الجزائر منذ مطلع سنة ١٨٨٠، ووقع كثير من المزارعين الفرنسيين فى الكساد نتيجة مرض الكروم Phylloxera. كما أن الظروف الاجتماعية المتدهورة فى فرنسا بسبب حروبها وهزائمها السياسية، فضلا عما أفرزته الحروب الأهلية الأوربية؛ إذ تدفق مهاجرون أوربيون بعد قيام الوحدة الإيطالية السلافية وحروب البلقان وهزيمة فرنسا السياسية أمام إسبانيا وقلاقل حربين عالميتين ... جميعها أدت إلى تشكيل تركيبة من المستوطنين فى الجزائر غير متجانسة لا عرقيا ولا لغويا. ففى عام ١٨٧٦ كان هناك نحو ١٥٣٠٠٠ مستوطن أجنبى من مجموع ٣٤٤٠٠٠. وعشية اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤ تقدر

المصادر أن أكثر من نصف مليون مستوطن يدخل ضمن خانة الشريحة الأجنبية.

للمزيد راجع:

CLEGG. I: (971) Workers'self - Management in Algeria Allen, The Engines Press. Vigo street. London. U.K, p.26.

انظر: عدى الهوارى: الاستعمار الفرنسى فى الجزائر - سياسة التفكيك الاقتصادى - الاجتماعى ١٩٣٠ - ١٩٦٠، ترجمة: جوزيف عبد الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ١٩٨٢.

٤ - يعتقد رجال الدين المسيحى أن المسلمين "وثنيون" Pagans؛ إذ يطلق عليهم "Mohamadians" أتباع محمد الذين لم تصل إليهم بعد الدعاية المسيحية الصادرة عن المناطق الأهلة بالمؤمنين فى فرنسا، على أساس أنها موطن البنت الكبرى للمسيحية فى أوربا، لكن المبشرين واجهوا صعوبات فى نشر الإيمان المسيحى فى الجزائر "المسلمة العربية"، ولذلك نجدهم يقترحون فكرة التثاقف Acculturation، ومفادها أن رسالة الإيمان المسيحى الجديد يمكن فقط أن تصبح مفهومة؛ إذ قيلت باتباع الطبيعة الخاصة بالثقافات والمعتقدات للشعوب الأخرى ... وحذا حذوهم رجال السياسية الفرنسيون، عسى أن يحدث بعض الأثر فى الذهنية الجزائرية بتوغلها الشديد فى القدرية.

٥ - **هناك عدد من الدراسات منها:**

بيان نويهض الحوت (١٩٩١) فلسطين، القضية، الشعب، الحضارة، التاريخ السياسى من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين (١٩١٧)، دار الاستقلال للدراسات والنشر بيروت، لبنان.

See: Also:

- Carlier O.et al. (1988) léttrés, Intellectuels, et

Militants en - Algérie. 1880 - 1950. O.P.U: Alger.

- EL - KIN; A, P (1964) The Australian Aborigines 4th Edition. Garden city. New York - U.S.A.

- FANON, F (1961) les Damnés de la Terre. (Maspero, Paris, France).

- HEPPLE, A (1966) South Africa - A Political and Economic History. Pall. Mall librairy of African Affairs. London. U.K.

- MAHSAS, A (1979) - Le Mouvement Révolutionnaire en Algérie depuis 1ere Guerre Mondiale A 1954. L'harmattan, Paris, France.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE LA RECHERCHE ET DES ETUDES ARABES
معهد الجامعات العربية

المراجع:

أولا- المراجع العربية:

١- إبراهيم بدران وسلوى خماش: دراسات فى العقلية الخرافية، دار الحقيقة، بيروت- لبنان ١٩٧٥.

٢- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، الجزء الثانى، الطبعة الثانية، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، لبنان ١٩٧٩.

٣- الإبراهيمى أحمد طالب: (د.ت) من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة: حنفى بن عيسى (١٩٦٢ - ١٩٧٢) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

٤- حامد عبد الله ربيع: مقدمة فى العلوم السلوكية، دار الفكر العربى، القاهرة، مصر ١٩٧٢.

٥- عبد الله ساقور: الاقتصاد السياسى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة ٢٠٠٤.

٦- عبد الله ساقور: المشاركة الاجتماعية فى التنمية المحلية، بحث ميدانى فى مدينة عنابة، دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة باجى مختار، عنابة ٥ و٨- ١٩٩٩.

٧- محمد حافظ دياب: الاتصال الثقافى بين الجماعات الإثنية، دراسة للجالية الجزائرية بمدينة مرسيليا (فرنسا)، جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٧٩.

٨- ميشل دنكن: معجم علم الاجتماع، ترجمة: إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، لبنان ١٩٨١.

ثانيا- المراجع الأجنبية:

1- Bensamil; B (1994) la Psychiatrie d'Aujour d'hui. O.P.U. Alger.

2- Casanova, P.G (1964) Internal colonialism.

3- Clegg. I. (1971) Workers Self - Management in Algeria. Allan. Lane. The Penguin Press. Vigostreet. London. U.K.

4- Djeghloul, A etal (1988) léttrés, Intellectuels, et Militants en Algérie (1880-1950) O.P.U. Alger.

5- Fanon, F (1961) Les Damnés de la Terre. Maspero - Paris France.

6- Memmi, A (1957) Portrait du colonisé précédé du Portrait du Colonisateur, Correa. Presse France.

7- Merivale, H (1861) Lectures on Colonisation, and Colonies, Delivered Before the University of Oxford in 1840 and 1841, London, U.K.

8- Korso, M etal (1988) léttrés, Intellectuels, et Militants en Algérie, 1880- 1950).O.P.U. Alger.

9- SADY. F. I (1957) The U.N and Dependent Peoples, the Brooking Institution Washington DC.U.S.A.

10- U.N. Documents 1946.